الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية

دراسة تحليلية في فكر العلامة الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي

د . نصار أسعد نصار

ألف الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى, في (1982), كتاباً بعنوان: (**الإسلام ملاذ المجتمعات الإنسانية**, لماذا وكيف), أوضح فيه بالأدلة العقلية والبراهين النظرية, أوجه الخلل في المذاهب الفكرية المعاصرة, وعدم صلاحيتها لإنقاذ البشرية مما تعانيه من اضطرابات, وتحقيق العدالة بين الشعوب والأفراد. وأن تحقيق ما عجزت عنه تلك المذاهب, لا يوفره إلا الإسلام, سواء لمعتنقيه, أو لغيرهم. وأنه يمثل الملاذ الآمن للناس جمعياً, دون سائر المذاهب الفكرية السائدة في العالم, مبيناً السبب, وموضحاً الكيفية.

وكي لا يُعترض على مثل هذه الحقيقة, بأن الإسلام لو كان ملاذاً حقيقياً, للبشرية, لما عانى المسلمون من مشكلات تؤرق عيشهم ؟!

فكان الجواب, أن ما يعانيه المسلمون, إنما أن يعود إلى الخطأ في الفهم, أو إلى سوء التطبيق, وليس إلى جوهر التعاليم التي جاء بها الإسلام. [1]

يدور محو هذا الكتاب على بحث أساسي واحد, هو بيان أن الإسلام ضرورة لا بد منها لسائر المجتمعات الإنسانية على اختلافها, وأن سائر من في هذه المجتمعات بوسعهم أن يدركوا ذلك, لو تجرَّدوا عن العصبية الذاتية, وتحرروا عن الشهوات والقيود.

يلي ذلك عرض المشكلات التي قد تعترض فيما يتخيله – بعض الأذهان– سبل تطبيق الإسلام.

أولها وأهمها: مشكلات المذاهب الفكرية المعاصرة, والحديث عنها يهم الباحث الغربي كما

[1] ذكر الدكتور رحمه الله في مقدمة الكتاب: أنه بعد أن ألقى الدكتور موريس بوكاي العالم والطبيب الفرنسي محاضرة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم, تعرض لهجوم مقذع من مسلمين تسابقوا إلى تسخيفه وتبكيته, وأن الإسلام ليس بحاجة إلى دراسته ودفاعه عنه, وليتفرغ إلى طبه ومستشفاه. وكان ذلك في ملتقى الفكر الإسلامي الذي عُقد في الجزائر, عام (1973), وقد كانت بعد كتابه: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. وعند التحدث عن المفكر اليساري الفرنسي (روجيه جارودي), واعتناقه الإسلام, علق بعضهم أنه لا حاجة للإسلام إلى شهادة أمثال هؤلاء. ومنذ أكثر من خمسين عاماً, قال العبقري بديع الزمان النورسي: <الخلافة الإسلامية حبلى, وستلد يوماً ما, والبلاد الأوربية حبلى وستلد الإسلام يوماً ما>.

يهم المسلم المعاصر على السواء؛ لأن كثيراً من المسلمين خاضعين لهذه المذاهب الفكرية.

ثانيهما: مشكلات تتعلق بفهم القرآن الكريم وتفسيره, فإن من المسلمين من يفسر القرآن حسبما يروق لهم, كي يتاح لهم أن يسيروا بالإسلام في الطريق الذي يحبون.

ثالثهما: مشكلات الاتباع والابتداع, وهم الجامدون عند حرفية النصوص؛ حيث تترك تأخذا أبعاداً سيئة, وتترك أثاراً من الضياع والاضطراب, في مخضرمي الإسلام أو حديثي العهد به.

رابعها: مشكلات تتعلق بالتاريخ والمجتمع , أما يتعلق بالتاريخ, فأثارها مستشرقون وأذنابهم, وظفتهم حكوماته لأجل ذلك. أما المشكلات الاجتماعية, فهي ليست بحد ذاتها مشكلة, وإنما المشكل أن لا يعالجها المفكرون وعلماء الإسلام طبقاً للأحكام الثابتة التي أقامها الله تعالى في عباده لحل هذه المشكلات وأمثالها.

ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية, لماذا وكيف؟

أولاً, لماذا ؟.

الخروج من سلطان العبودية لله ﷻ مؤداه استعباد الناس بعضهم لبعض, والتسابق في نيل الشهوات وتسلط الأقوياء, وقهر الضعفاء...

ولم يزدد الإنسان في فضاء التمرد إلا فوضى أخلاقية, ولم يحصد إلا ثمار الخيبة, وما كاد يقطع أشواطاً في اكتشاف قوانين الطبيعة لإخضاعها لسلطانه, حتى خضع لها, فبدل قيادها له قادته, فإذا هو مقود بالزمام الذي كان بيده.

فما كان إلا أن أُتيَّ من حيث أراد أن يتحرر, واستعبد من حيث أراد أن يسود.

فهاهم أولاء فاضت بهم المجتمعات الغربية, فعمَّ القلق, وساد اليأس, فازدحمت العيادات النفسية, وتعددت أساليب الانتحار, وتنوعت وسائل الموت.

سبب الخلل عدم إقامة علاقة متناسقة بين طرفي المعادلة في الكون, حياة الإنسان والدنيا المحيطة به, ولا تتحقق عملية الاختيار إلا بتلاقي طرفين, أحدهما مغروس في أغوار مشاعرنا, والآخر مرتبط بقوانين الكون وأنظمته.

والحرية ليست أكثر من أن يمتلك الإنسان القدرة على التنسيق بين بين هذين الطرفين, بقرارات من شعوره الداخلي.

وفي حين أن الطرف المرتبط بقوانين الكون وأنظمته, قطب ثابت, لا يشكل الطرف الآخر إلا

اتجاهاً متحركاً نحوه, من سبل شتى. فمن تصور أنه قادر على أن يجعل من رغبته الذاتية القطب الأساسي والمحور الثابت, وأن الدنيا وما فيها ستطوف بكل ما فيها حوله خدمة وتقديساً, ثم اتخذ من حريته سبيلاً إلى ذلك, فمآله مآل الوجوديين من اليأس والإحباط.

ينتج مما سبق أنه لكي يمارس شخص حريته, ينبغي أن يعلم أنه أمام كون له نواميس ثابتة لا مناص من الخضوع لها, وهذا يضعه أمام دلائل تثبت وجود خالق جليل لها, ومبدع عظيم لنظامها.

عندها يبدأ الإنسان باكتشاف هويته, والاطلاع على مهمته التي خُلق من أجلها.

في هذا المناخ يتاح للإنسان ممارسة حريته على وجهها الصحيح. إذ يتكامل حينئذ طرفاها اللذان لا يمكن للحرية الإنسانية أن تتكون إلا منهما معاً: الطرف الداخلي المتصل بأغوار النفس, والطرف الخارجي المنسجم مع واقع الكون ونظامه.

الإسلام هو النظام الوحيد الذي يقوم على مراعاة طرفي هذه المعادلة, دون حيف على طرف, أو ميل إلى جانب, فالاستجابة له تمثل استجابة لنوازع الفطرة وفق النواميس الإلهية, وليست حاجة ذرائعية, دافعها حالة اجتماعية, أو ضائقة اقتصادية, أو باعثها التمسك بتراث الآباء والأجداد, مما يصدق بحق وصفه بأنه دين الفطرة.

ثانياً, كيف؟.

لقد شاءت حكمة الباري ﷻ أن يكون الإنسان محور المكونات المختلفة التي تطوف من حوله, وأن يوليه السيادة عليها, {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: 70], وسخرها له {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية: 13], وأوكل إليه عمارتها: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود:61].

وكان من مقتضى هذه المكانة التي بوأه الله ﷻ إياها, والمهمة التي شرفه بها, أن يجهزه بإمكانات وقدرات خاصة, تيسر له سبيل النهوض بما كُلف به, وتعينه على استخدام كل ما حوله لتحقيق ما هو بصدده, وتمكنه من إدارة شأن هذه الأرض على الوجه المطلوب, كالعلم والقدرة والنزوع إلى الأثرة والتملك وحب الذات...

إلا أن هذه الصفات والقدرات التي جهزه الله ﷻ الإنسان بها, **أسلحة ذات حدين**, فكما تصلح لأن تكون أداة تعمير وبناء, تصلح لأن تكون معول هدم وتخريب.

وفي غمرة السعي, ربما نسيَّ الإنسان ذاته, وضلَّ عن هويته, وطغى فوق حدوده, فتماوج الناس من ذلك فيما بينهم في صراع دائب, لا على الحياة ومقوماتها, بل على الطغيان وأسبابه.

لذا كان الإنسان بأمسِّ الحاجة إلى ما يُبَصِّره بحقيقة نفسه, والغاية من وجوده؛ وإلى تعريفه بكيفية استعمال ما أودع الله ﷻ فيه من صفات, وما غرس فيه من دوافع, لضمان السير السليم, والاستعمال الصحيح, والاستفادة على الوجه الحسن, كي لا يقع صريع الهوى, وضحية رعونات النفس.

إذا كان الإنسان يمتاز عن غيره, بالتمتع بحرية الإرادة والاختيار في توجيه سلوكه, فإن يندفع الحيوان, تضبط سلوكه غرائز قسرِّية, تلجمه عن الوقوع في الانحراف والطغيان.

وما يصلح لضبط سلوك الحيوان, لا يصلح لضبط سلوك الإنسان؛ لتمتعه بحرية الإرادة والاختيار, لذلك لا شطط ولا تجاوز لدى الحيوان, بخلاف الإنسان, مما يعني حاجته إلى ما يرشده ويضبط سلوكه, فالحيوانات تفترس لكن في حدود الكفاية, وتتسافد في نطاق الحافظ على النوع, وكذلك الحنو على الصغار إلى حد الحاجة. كل هذا الانضباط يتم دون قصد أو إرادة منها, إنما يتم تحت ظل كوابح ربانية أودعها الله ﷻ فيها, طبقاً لما تقتضيه مصحلتها وحياتها الجامعية والفردية.

أما الإنسان فلا مكان في حياته لسلطان هذه الغريزة القسرِّية, بعد أن توَّج الله ﷻ تلك الملكات التي منحه إياها بحرية الإرادة والاختيار, التي لولاها لما أفادته ملكاته شيئاً في القيام بمهمته.

والسؤال المطروح, إذا كان الحيوان وُقيَ شرَّ نفسه **بما أودع فيه من ضوابط قسرية**, فما الشيء الذي يضبط جموح الجنوح والتطرف والشذوذ...؟

ولدى النظرة العجلى يقال إنه: >العقل<. لكن المتأمل يجده ما يلبث أن يصير جندياً من جنود النفس, يدور في فلكها, ويسعى في خدمتها, وينافح عن خيارتها, ويبرر سلوكها. والواقع شاهد عيان.

فكم من قوي طغى على ضعيف, وكم من غنى عميَّ عن فقير, وكم من كبير عدا على صغير, وكم من فعال شنيعة اقترفت, وكم من خصال ذميمة ارتكبت؟!. وكل ذلك برر له العقل, وسَوَّق له الفكر؟

فإذا كان العقل – وهو أغلى ما يعتز به الشخص- قد سقط عند الاختبار, فمن يقي

الإنسان من شر نفسه ؟؟

وتعددت الأجوبة عبر التاريخ, من فلاسفة, وعلماء اجتماع, ودعاة حرية, وأنصار مادية, وأصحاب فكر سياسي... وكل هذه لم تكن ثمارها نقية؛ إما لأنها انحازت إلى طرف دون غيره, أو رجحت جانباً على آخر, دون وجه حق.

فلم يبق إلا صوت الحق, مبدع الكون, وخالق الخلق, ومن أبدع وخلق أعلم بما يُصْلِح شؤون الخلق من الخلق أنفسهم, {ألا يعلم من خلق}؛ لاتصافه بالعلم المطلق, والتنزه عن الانحياز أو المحاباة, ومن له الخلق له الأمر: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: 54].

كان ذلك **من خلال الدين** الذي أرسل الله ﷻ من أجله رسلاً هداة إلى الطريق الحق, والصراط المستقيم الذي ارتضاه لعباده, وما الدين إلا النظام الإلهي الذي ارتضاه لعباده وأمر به: {وأن هذا صراطي مستقيماً}, لذلك: {ما أمة من إلا خلا فيها نذير}, والأنبياء جمعياً وإن اختلفت شخصوهم وتعددت شرائعهم, جاءوا بدعوة واحدة, {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ }.

ثالثاً, لماذا أخفقت المذاهب الإنسانية؟.

يتلخص السر في إخفاق الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأخلاق من تخليص الإنسان من شر نفسه, أن ما يدَّعونه إنما هو عبارة عن تعاليم ذات طبيعة إنشائية توجهيه تعد انعكاساً لفكر أصحابها, وتعبيراً عن وجهة نظرهم, والإنسان إنما يكون أكثر إصغاء للتوجيه الداخلي, منه إلى التوجيه الخارجي, بل يجد غضاضة في الاستجابة إلى نداء غيره. وأساس الفكر الوجودي يقوم على التحرر من ربقة كل المبادئ .

فلهذا السبب بقيت التعاليم الفلسفية ونصائح علماء الاجتماع مجرد أحاديث تكتب, وأقوال تروى, وأفكار تطرح,

وفي مقابله فإن للدين من التأثير والفاعلية ما ليست لغيره؛ لأنه يبدأ بالإنسان فيبصره بحقيقة نفسه, ويبين له موقعه, ويوضح له مهمته, مخاطباً فيه العقل, ومستثيراً منه الوجدان, وداعياً له إلى التأمل, وحاثاً له على النظر, شافعاً ذلك بالدليل والبرهان.

فيجد فيه ما يلبي نداء الروح, ويغذي متطلبات الفطرة, ويوفر حاجات الجسد, بقصد واعتدال دون أن يطغى جانب على آخر, أو يحيف طرف على طرف.

إنَّ المطالع للبيان الإلهي يجد الحقائق أمامه ناصعة, لا يملك لها رداً, ولا يجد منها بداً: {اللَّهُ

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: 54]. { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: 115 - 117].

فعندما يدرك الإنسان تلك الحقائق, يتيقن أنَّ لحريته حدوداً لا يملك تجاوزها, ومن آثار هذا اليقين أن تصبح الصفات التي متع الله ﷻ بها الإنسان ينبوع خير, ومصدر سعادة, للبشرية جمعاء.

فتتوجه نوازع العلم نحو مزيد من كشف أسرار الكون والعمل على تسخيره لخدمة البشرية, وتغدو أسباب القوة والبطش جنوداً لحراسة الحقوق المشروعة, وحصناً لحفظ العدالة, وأداة للدفاع عن المبادئ والمثل الأخلاقية.

طريق العودة إلى الإسلام.

يقف الإسلام في مجموعه الكلي بين طريقين: **يتمثل الأول** في أنظمته وتشريعاته الجزئية, **ويتمثل الثاني** في جذروه الاعتقادية, وركنه الأساسي وهو الإيمان بالله ﷻ رباً.

فأي الطريقين نسلكه إلى الإسلام, الطريق الذي يُسْلِّمُنا إلى فروعه وثماره, أم الذي يهدينا إلى جذروه وجوهره, ومن ثمَّ يوصلنا إلى تشريعاته وأحكامه؟.

أما فريق السائرين مع التيار الحضاري, فيما يريدون أن يسلكوا إلى الإسلام إلا الطريق الذي يسلمهم إلى فروعه ومغانمه, ثم يوقفهم عندها, دون أن أي التفات جادٍّ إلى أنه في أصوله الراسخة ليس إلا اصطباغاً بالعبودية الحقيقية لله تعالى, ودينونة كاملة لحكمه وسلطانه, وأنه بناء على ذلك لا بد أن يقيد حرية الإنسان بمقتضيات هذه العبودية وموجباتها.

ومؤدى هذا الاتجاه أن الإسلام يفهم على أنه مجرد نظام فوقي من جملة الأنظمة التي يتنقل الناس ما بينها, فما أيسر أن تسلط عليه دواعي التبديل والتطوير, طبقاً لما تمليه الرغبة, وتفرضه الأغراض والأهواء, إذ لا ترتبط أنظمته وأحكامه –والحالة هذه – بأي جذور ثابتة تمنعها من التسيب والتميع, فضلاً عن التبديل والتحوير.

لذلك يتمنون على علماء الدين القيام بالاجتهاد في تشريعاته وأحكامه, وإعادة النظر في الكثير من أنظمته وقيوده التي لم تعد تساير الركب, وتماشي الظرف... يقولون هذا بالطريقة التي يتحدث بها الناس عن أي تشريع أو نظام صاغته أدمغة الناس, فالميزان عندهم تعديل التشريعات بما

يلبي الرغبات ويساير الركب...

وأما **الفريق الآخر**: (وهو يمثل جمهرة الشاب المثقف في العالم الإسلامي كما يمثل أكثر الذين يدخلون الإسلام في أروبا وأمريكا), فما يشدهم إلى الإسلام إلا ارتيابهم في أفكارهم وعقائدهم السابقة التي كانت تحجبهم عن النظر في أصول الإسلام وأسسه؛ لذلك سلكوا إليه الطريق الموصلة إلى تلك الأصول والكفيلة بفهم تلك الأسس. وترى هؤلاء قد ظهرت ثمار إيمانه بإخضاع المظهر والسلوك الشخصي لمقتضيات العبودية الكاملة لله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

ويتمثل فرق ما بين هذين الفريقين في النتيجة, فيما يأتي:

أولاً: ينظر **أولهما** إلى الفقه الإسلامي على أنه ذخر حضاري مرن, ما أيسر أن يجاري الحضارة الغربية اليوم, لو أقبل علماء الشريعة إليه تطويراً عن طريق الاجتهاد, لذلك يتخلص المسلم من مأساة الغربة التي يعاني منها تجاه التيارات المعاصرة...

أما ثانيهما فيمارس أحكام الشريعة وينظر إليها من خلال يقينه بعبوديته الحقيقية لمنزل هذه الأحكام ومشرعها, فتراه يحتاط في التمسك بها والائتمان عليها, والحذر من أن يقع في طائلة أي تغيير أو تضيع لشيء منها, مغتبطاً بغربته التي امتدحه رسول الله ‘ على اصطباغه بها, وتحمله له.[2]

ثانياً: يقف أولهما من مجموع الحقيقة الإسلامية, عند طرف الأنظمة والتشريعات الاجتماعية والمظاهر التراثية, ثم لا يتجاوزها إلى شيء من الجذور والأسس التي لا يمكن أن ينهض وجود تلك التشريعات إلا عليها. لا جرم أن اهتمام هذا الفريق بما وراء ذلك من مظاهر العبودية لله تعالى والتزاماتها السلوكية مفقود.

أما الفريق الثاني: فنظراً إلى أنه سلك إلى الإسلام الطريق الموصل إلى جذوره والمعرف على حقيقته وجوهره, كان لا بد لتلك الجذور والأصول أن تُسلمه بدورها إلى التطبيقات السلوكية, والتشريعات الشخصية والاجتماعية, بدافع من مشاعر عبوديته للمشرع.

إنَّ ترسيخ الإيمان وتثبيت العقيدة هي الأساس والمبدأ, وهي المحرك, ومنها تنتج الثمار, وإلا أصبح الإسلام مجرد طقوس تؤدى, وتمائم تتلى.

إن إصلاح حال المسلمين لا يتم إلا بترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان, كما أن دعوة

[2] وهي قوله ‘: >بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً, فطوبى للغرباء<. أخرجه مسلم وغيره.

الآخرين لا تبدأ إلا من هذا السبيل.

وهنا يبرز السؤال التالي:

أيهما أقامه الله ﷻ لرعاية الثاني, الدين للدنيا, أم الدنيا للدين؟.

خلق الله ﷻ الإنسان وشرفه بمهمة كبرى لم يحظ بها أحد دونه, ألا وهي أن يمارس العبودية لله بسلوكه الاختياري, كما طبع بحقيقة العبودية له, في واقعه الاضطراري, وبذلك يغدو الإنسان من حيث وجوده الفردي والاجتماعي أبرز الآيات الكونية الدالة على عظمة الله ﷻ وألوهيته, كما أن ظهور عبودية الإنسان لله الوجه الآخر لتجلي ربوبية الله ﷻ.

وممارسة العبودية لله ﷻ لا تحقق إلا بقيامه بواجبات تنطوي على قدر من المشقة, وهو المعنيُّ بـ(التكاليف), ولن يمكنه النهوض بها إلا خلال إقامة شبكة من العلاقات مع بني جنسه, لعمارة الأرض بالمعنى الحضاري الشامل, وفي أثناء ذلك يلاقي صعاباً وآلاماً, وتطوف حوله شهوات ومغريات, فلا تصده الصعاب بشدائدها, ولا تحرفه الشهوات بمغرياتها, بل يبقى ثابت على موقفه: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام: 162، 163]. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } [الأحزاب: 72]. وعن عمارة الكون, قال: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: 61].

وبناءً على هذا قد يتوهم البعض أن الدين إنما يتمثل في جملة التشريعات المتعلقة بعمارة الكون, وأنه يصح أن يقال: >إنما أقيم الدين لرعاية الدنيا<. بل هي جزء من بِنية الدين ونظامه, وليست كل الدين, وإنما شرعها الله تعالى لتنتظم بها حياة الناس, وتستقيم على وجهها السليم, وما مثل من عدَّها غاية بحد ذاتها, إلا كمثل من انشغل عن القيام بمهمة موكلة إليه, بالأمور التبعية: >مسكن وملبس ومطعم<, جعالاً منها الهدف والغاية, وناسياً المقصد الأصلي الذي أُوكل إليه.

إذاً شَرَعها الله ﷻ – أي المتعلقة بعمارة الكون– للناس ليُمَكِنهم من النهوض بأعباء العبودية التي كُلفوا بها, والتي هي جوهر الدين وعموده, وأول **تجلياتها في القصد والنية من كل عمل.**

لذلك فحقيقة الدين: أنه تشريع إلهي جاء لهداية الناس, يجلب لهم الخير في دنياهم وآخرتهم.

وكي لا تغيب الحقيقة عن فكر الإنسان, وينسى المهمة التي أوكلت إليه, يأتي التحذير الإلهي: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ

لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [هود: 15، 16].

ومن جليل حكم الباري ﷻ أن نظام الدنيا لا يستقيم على الوجه الصحيح إلا إذا ربط بالآخرة, وجعلت مظاهر الأولى تدور في فلك الثانية, وتسعى لتحقيقها.

'فما لم يرتبط العمل بالإيمان, لن يأمن أحد أحداً, وستكون المبادئ التي يُنادى بها مجرد شعارات ترفع؛ وخير شاهد التاريخ, فكم من شعارات رفعت باسم الدين, معارضة في واقعها لجوهر الدين و كنهه, وما قصد بها إلا تحقيق أغراض خاصة على حساب الآخرين من غير وجه حق.

وما مثل الدنيا بالنسبة إلى الدين, إلا كمثل جسر يعبر بالشخص إلى مكان إقامته, ولا ضير أن يكون مجهزاً بأدوات الراحة والأمان, ولكن ينقلب مشكلة, بل يصبح عقبة لمن يقف عنده ولا يتجاوزه, منبهراً بإحكام بنائه, وجميل منظره, ثم يتخذ من ظلاله الوارفة موطن إقامة, حتى إذا جنَّ الليل, وأدركته وحشة المكان, علم أنه قد خُدع وانقطعت به السبل عند درك منزله الذي غذَّ السير إليه منذ الصابح الباكر.

الدين الحق وأهواء الناس.

كفى بالدين عظمة أن يدَّعيه من لا يحمله, وكفى بالكفر سوءاً أن يتبرَّأ منه من كان متلبساً به. فكثير من الناس يسيرون خلف أهوائهم, وما تُلِح به عليهم شوائهم, مدِّعين التدَّين والالتزام به؛ لتحقيق أغراض شخصية, ومصالح خاصة, مُلَبِّسين على الآخرين, وربما لبَّسوا على نفوسهم أيضاً, حتى ليخيل إلى من يعاينهم أنهم ليسوا إلا عباد الله المخْلَصِينَ, وأن ما يدعون جوهر الدين الحق.

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } [محمد: 14]

من أهم الحيل التي يجنح إليها كثير من الناس سعيهم إلى إخضاع الدين إلى مقتضيات الرغبات والأهواء, بدل من أن الدين جاء لإخضاع الرغبات والأهواء إلى سلطان الدين. وأكثر من أتقن هذه الحرفة بنو إسرائيل, والآيات الدالة على هذا كثيرة: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: 163].

قال الشاطبي: لَا تَجِدُ فِرْقَةً مِنَ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ وَلا أَحَداً مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْأَحْكَامِ لا الْفُرُوعِيَّةِ وَلا الْأُصُولِيَّةِ يَعْجِزُ عَنِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى مَذْهَبِهِ بِظَوَاهِرَ مِنَ الْأَدِلَّةِ، وَقَدْ مَرَّ مِنْ ذَلِكَ أَمْثِلَةٌ، بَلْ قَدْ شَاهَدْنَا وَرَأَيْنَا مِنَ الْفُسَّاقِ مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى مَسَائِلِ الْفِسْقِ بِأَدِلَّةٍ يَنْسُبُهَا إِلَى الشَّرِيعَةِ الْمُنَزَّهَةِ، وَفِي

كُتُبِ التَّوَارِيخِ وَالْأَخْبَارِ مِنْ ذَلِكَ أَطْرَافٌ مَا أَشْنَعَهَا فِي الِافْتِئَاتِ عَلَى الشَّرِيعَةِ، وَانْظُرْ فِي مَسْأَلَةِ التَّدَاوِي مِنَ الْخُمَارِ فِي "دُرَّةِ الْغَوَّاصِ" لِلْحَرِيرِيِّ وَأَشْبَاهِهَا، بَلْ قَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُ. النَّصَارَى عَلَى صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ الْآنَ بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ تَحَيَّلَ؛ فَاسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَالْمُسْلِمِينَ فِي التَّوْحِيدِ، {وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} [الْإِسْرَاءِ: 43] . فَلِهَذَا كُلِّهِ يَجِبُ عَلَى كُلِّ نَاظِرٍ فِي الدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ مُرَاعَاةُ مَا فَهِمَ مِنْهُ الْأَوَّلُونَ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْعَمَلِ بِهِ؛ فَهُوَ أَحْرَى بِالصَّوَابِ، وَأَقْوَمُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.[3]

لا إسلام بدون عبودية كاملة لله تعالى.

المسلمون عدديهم كبير, ويعلمون الكثير عن الإسلام, إلا أن ذلك لم يأت بحصيلة, ولم يتقدم بهم إلى غاية, ولم يرفعهم إلى الشأو المأمول أن يصل الإسلام بمعتنيقه إليه, فما السبب في ذلك؟.

وسبب ذلك إصرار الكثير منهم على فهم الإسلام كما يحبون, لا كما هو في حقيقته وذاته, فهم يعجبون به من حيث هو عنوان وشعار, ويشعرون بفخر انتسابهم إليه, وارتباطهم به, ولكن ما إن يواجهوا أحاكمه حتى يتبرموا بها, أو بأكثرها, وجهدوا أن يتهربوا منها, موهمين أنفسهم أن الإسلام لا يستلزم شيئاً من ذلك.

هم معجبون بشعارات الإسلام ويفخرون بالانتساب إليه, لما تخزنه في باطنها من ذكريات البطولة والمجد والمظاهر الحضارية التي اصطبغت بها أكثر أحقاب الإسلام؛ وإنما يتبرمون بالكثير من قيوده وأحكامه, لما قد تفوّته عليهم من متعة الاستمتاع ببهارج المدنية المعاصرة, فمن أجل ذلك يشتهون أن يكون الإسلام نسباً فخرياً يربطهم بأمجاد الماضي وسبيلاً مفتوحة تسير لهم اللحاق بمتعة الحاضر وأماني المستقبل. وإنما ينساقون إلى هذه الحالة بسبب قياسهم الإسلام على الأديان أو المذاهب الفكرية السائدة.

من هنا يأتي رفض العود إلى هدي الإسلام في جميع أحكامه, ومن هنا تثور ثائرة من يرفض الحجاب والحشمة, ومن يصر على المحافظة على النظام الربوي, ومن يجادل في سبيل أن يصبغ كثيراً من الحقائق الاعتقادية في الإسلام بالنظرة غير الإسلامية.

فالتديُّن لا يتحقق إلا إذا أُتيَّ بكامل الإسلام: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ

[3] الموافقات (288/3). تتخلص القصة التي أشار إليها, أن قاضياً سُئل عن الخمر بحضرة بعض الولاة الذين عُرفوا بتعاطيهم الخمرة, فأفتى بجواز شربها, واختلق حديثاً, فما كان من الوالي إلا أن أنزل به عقوبة؛ لأن حرمتها غير خافية عليه.

اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 208، 209], عندئذٍ تورف ظلاله, وتينع ثماره: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ } [إبراهيم: 13، 14].

مشكلات الأفكار المعاصرة في ميزان الإسلام.

فلنعرف الميزان الميزان الإسلامي ما هو أولاً؟:

قد يخيل إلى القاريء أن الميزان الإسلامي, >قال الله وقال رسوله<. إنما يعتمد الإسلام لقبول أي فكرة أو رفضها, ميزاناً حيادياً, سابق في البعد الزمني أو الاعتباري أي مذهب أو دين أو عقيدة أو سلوك. فما هو ذلك الميزان؟.

إنه العلم بمعناه المطلق, المعرف بقولهم: إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل. ولن يكون علماً إلا إذا كان خالياً من أسبقيات عصبية أو رغبات أو أهواء, بل معتمداً على نبراس العقل والمنطق الخالصين من شوائب الأغيار أيًّا كانت. والدليل عليه: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36].

يحذر هذا النص القرآني الإنسان أن يتبع أي اعتقاد أو سلوك ما لا علم له بحقيقته, ولا بينة له على صدقه, و >ما< من أداة العموم, فإذن تشمل كل كل ما يُدعى إليه الإنسان من الأفكار والمعتقدات, أو ما يجده أمامه من مناهج الحياة أو السلوك, بما في ذلك الإسلام نفسه, إذ هو واحد من المعتقدات والتصورات التي يُدعى إليها الإنسان.

فالقرآن الكريم يقرر بوضوح أن على الإنسان أن لا يُخضع ذاته لأي تبعية فكرية أو اعتقادية أيًّا كانت, إلا بعد أن يتأكد أنها حقيقة علمية, وليست وهماً مزيفاً, وانطلاقاً من هذا يرفض من الإنسان حتى اعتناق الإسلام نفسه, إلا إذا أُقيم على أساس متين من هذه البنية العلمية الحرة.

ومن هنا كان من أُولى مبادىء الإسلام ما اتفق عليه علماء التوحيد أن العقيدة الإسلامية القائمة على التبعية والتقليد, لا تغني عن صاحبها شيئاً, ولا تنفعه يوم القيامة.

فالإسلام في واقع حاله ليس إلا تعريفاً للإنسان بقصة الكون كله من حيث هو, وتبصيراً له بمنظوره الكلي الشامل وتنبيهاً إلى أسراره الكامنة ورائه. إنها الخارطة الشاملة التي تبين تفاصيل المكونات, مجسدة في حقيقتها الكلية الواحدة, والسر الجاثم من روائها.

فالإسلام مدخل المعرفة الكلية الأولى لقصة هذا الكون وحقيقته, وهيهات أن يسعد الإنسان

بمعارفه الجزئية المختلفة, أو يفيد منها الفائدة الحقيقية على مستوى المجمتع الإنساني, إلا سلك إليها سبيل ذلك المدخل, واتخذ منه المنطلق والأساس.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الإسلام, فمن البدهي أنه لا يمكن أن ينهض إلا على دعائم المنطق والعلم, ومن البدهي أيضاً أنه لايقر بتبعية الإنسان له, وتمسكه به, إلا إذا ساقته إلى ذلك القناعة العلمية المتبصرة, إذ كيف يكون مدخلاً من المعرفة الكلية للمجموعة الكونية الشاملة المتجسدة في حقيقة واحدة, إلى دنيا المعارف الجزئية التي تتفرق في جنباتها مطماح الناس ورغائبهم, إذا كان هو نفسه غير قائم على دعائم المنطق الصافي, والعلم السليم.

من أجل هذا كانت الخطوة الأولى التي يفتتح الإسلام حواره مع الإنسان على أساسها تحكيم ميزان العلم, الذي يسمو فوق دنيا الذرائع والأهواء, والعصبيات والأغراض, العلم الذي يتمثل في إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل.

من هنا يتبين موقف الإسلام من المذاهب الفكرية,والنظريات المختلفة عن الكون والحياة, يقوم على إخضاعها إلى الميزان العلمي الحر, فما مثَّل حقيقة ثابتة, قُبِل, وما لا, رُدَّ. فالحكم عليها, حكم الميزان العلمي, وليس للإسلام حكم على شيء منها إلا حكم العلم ذاته, فإن رفضها؛ فلأن موازين العلم المجرد أظهر بطلانها, وإن قبلها؛ فلأن موازين العلم أثبتت صحتها.

ومثل تلك الأفكار لا تعالج ب>قال الله وقال رسول الله<, إنما تعالج بواسطة ذلك الميزان.

الذين يؤلهون العلم, يقعون في شر أنواع الجهل.[4]

كلما تعمق الرجل في رحاب العلم وجد نفسه أنه أكثر جهلاً, وكلما كان أقل علماً, توهم أنه يعلم كل شيء.

إن العلم بالشيء مهما امتد اتساعه وازاد عمقه, إنما يقف عند نهايات الظواهر التي تكتنفه وتغشِّيه, حتى إذا اتصلت منه بذلك اللُّب الذي يسمونه الجوهر أو الماهية, ارتد العلم على أعقابه, وعاد من مسعاه, ولسان حاله يقول: >رحم الله امرءاً عرف حدَّه فوقف عنده<.

[4] قال بعض الحكماء: إن الإنسان إذا اكتسب شيئاً من المعارف عن أسرار الكون, ذهبت به النشوة مذهباً جعلته يتخيَّل ذاته إلهاً من دون الله ﷻ, فإذا تنامت معرفته, تراجعت به النشوة لتهمس إليه بأنه مجرد نبيٍّ, فإذا واصل السعي وحصل على مزيد من الدراية والعلم, اقتنع عند نفسه أنه ليس أكثر من عالم ممتاز, ثم إذا ازداد رغبة في ملاحقة الحقائق العلمية وسبر أغوارها, انتهى إلى يقين إلى يقين جازم بأنه جاهل لا يعلم شيئاً.

إن الشأن في الإنسان المتعلم إذا اكتشف شيئاً من ظواهر الموجودات أو المعلومات, أن يتوهم أنه قد عثر على – فيما وصل إليه – كنهه وجوهره. إذ هو لم يتهيا بعد, بسبب ملعوماته السطحية؛ لأن يعلم أن لكل شيء غلافاً من الظواهر والصفات, ولباً من الجوهر والماهية, وأن غير ذاك. فإذا وجد أن الظواهر قد وقعت تحت إدراكه, وخضعت للكثير من تحليلاته, توهم عند نفسه أنه قد استقصى من الشيء كل شيء, وأنه قد علم السر وأخفى, فأي فرق بقي إذن بينه وبين من يُسمى الربُّ الخالق؟!.. بل أي حاجة بقيت لديه للإيمان بالغيب, والخضوع للمجهول, ما دام أن علمه قد قضى على كل غيب, وبدد سحائب الجهالة كلها؟!.

بيد أنه إذا أُتيح له أن يصحو من نشوته الخادعة هذه, ويتابع النظر والبحث, علم أن أن ظواهر المادة ليست كل شيء فيها, بدليل أنها –على تنوعها واختلافها– خاضعة لنوع من الحركة والتغيُّر الدائبين. بدءاً من أشكالها السطحية إلى جُزيئاتها الخفية التي لا تُرى إلا بالمجهر, وهذا معنى قولهم: إن كل ما في المادة يتحرك.

أثبت العلم أن أجناس المواد تحتفظ بفوارق فيما بينها, وأن الذي يمنعها من التمازج والاختلاط على طول الأزمنة والقرون, مع أنها خاضعة بكل أنواعها وأجزائها لحركة دائبة, وما دامت الحركة باعثة –كما هو معلوم– على التبدل والتغيير, هو ما يسمى ب>الجوهر أو الماهية<, والمدلول العلمي له الدقيق غير معروف, وأن العلماء لم يضعوا أيدهم من المادة إلا على ظاهراتها, وهي متحركة متغيرة, ولكن ما هو الوعاء السحري الذي يمسك خصائص كل حنس من أجناس المادة, كي لا تختلط وتتمازج بغيرها؟.إن أحداً من العلماء لم يقع أي مدلول تفصيلي له, وما أمكن أحداً أن يرصده بأي حاسة, أو يضبطه باي جهاز.

وهكذا فإن علماً يسيراً يتعلق بطبيعة هذه الظاهرات, لم يدلَّ على أكثر من الجهل الكثير بما وراءها من جوهر الأجسام ومهاياتها.

ولهذا فما أبعد من يستغرقون في نشوة عارمة من معارفهم السطحية الجزئية, عن درك هذه الحقيقة العلمية الثابتة, ويكتشفوا حقائق ضعفهم ومظاهر محدوديتهم , فيعترفوا بها؛ ليخرجوا من سكرة الجهل المركب الواقعين فيه.

وثمة قاعدة أخرى, وهي: >العلم يتبع المعلوم<, فالمعلوم أساس العلم ومحوره الأساس.

إن العلم بالشيء ليس إلا المرآة المصورة لواقع ذلك الشيء كما هو. أي أن الشيء المعلوم

أسبق في الوجود من العلم به, وأن الشيء المعلوم أصل ثابت, والعلم به فرع لاحق, وأن الشيء المعلوم متبوع, والعلم به تابع.

ولئن كان العلم مع ذلك إلهاً من دون الله, فإن الشيء المعلوم الذي هو أصل له, أسبق منه في الألوهية, وأحرى من بالربوبية, ضرورة أن أصل الشيء أسبق من فرعه وجوداً, وأرسخ منه أصالة وثباتاً.

ويقرر الذين تحررت عقولهم من غاشية الجهل المركب وغروره, نتجية لذلك: أن العلم لا يُوجد معدوماً, ولكنه ينبه إلى الموجودات, ويعرِّف بمزاياها وخواصِّها , وطرق الاستفادة منها. ومهما تعددت تسَّميات >العَالِم<: المكتشف, مخترع, مبدع.... فلا يتجاوز ما قام به من اكتشاف الموجودات والتنبه إلى خوِّاصها الثابتة فيها, وإلى سبيل الاستفادة منها, فيما هي مهيأة له. ولا يمكن وصف –بحال من الأحوال– بكونه خالقاً أو موجداً, بل هو مكتشف للعلاقات بين الأشياء

من هنا يتبين زيف ما قيل: بأن **العلم قضى على أسطورة الغيب**, وذلل الطبيعية إلى كل ما يطمح إليه الإنسان. فكم في نواميس الكون من غيوب لا قِبل للعلم في اخرتاقها, وكم من قوانين راسخة لا قِبل للقوى الإنسانية مجتمعة تغيير شيء منها, وإنما من شأن العقل حيالها أن يستطلع أسرار تلك النواميس, ولا يكاد يمضي في تأمله غير بعيد حتى ترتفع أمامه حُجب منسدلة, فإذا هو أمام قيوم السموات والأرض: { الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50].

فمثل هذا استراح وأراح, بعد أن أنهى كل حيرة, وقضى على كل لغز, وأما من يتخبط في أساطير الغيب المجهول, ويصارع ما يسميه >تحديات الطبيعة<, وتتقاذفه أمواج القلق, فهو الذي جعل عمله السطحي إلهاً دون الله ﷻ , ثم لا يلبث أن يصف ما عجز عن فهمه لغزاً يستعصي على الحل, مما يوقعه في بحار من الحيرة والاضطراب.

الجدلية أحقاً هي محرك الطبيعة والتاريخ؟.

لا يتبنى السواد الأكبر من المفتونين بالأفكار الحديثة مذهباً مستقلاً, وإنما يلتقطون من كل مذهب أبرز ما يتميز به, فهم يأخذون من المادية الماركسية جدليتها, ومن المادية التاريخية اشتراكيتها, ومن الوجودية حريتها, ومن الداروينية فكرة التطور.

الجدلية: تعبير يتلخص في أن كل شيء يعيش في صراع وتفاعل مع ذاته, فتفنى وتتآكل من ذلك ظواهره القديمة. فتنشأ على أعقابها ظواهر أخرى أكثر غناءً وتعقيداً. ولا تلبث هذه الظواهر

الجديدة أن تبلى هي الأخرى في رحى هذه الصراع المستمر, لتقوم على حطامها ظواهر أكثر جدة وقوة وغناءً وهكذا. فالأشياء تتطور تحت سلطان هذا التفاعل والهياج الداخلي, متجهة دائماً إلى الأفضل والأرقى.

لكن ما مدى تطابق هذا الخيال مع الواقع؟ وأين مصداق ذلك في برهان التجربة والمشاهدة؟. فحبة الحنطة مثلاً, هل تغيَّر حجمها وجوهرها منذ أن وجدت؟

يتحقق المسوغ لمثل هذا الكلام عندما يثبت بدليل الاستقراء الكلي التام, أن ظاهرة هذا الصراع الذي ينتهي إلى السير نحو الأفضل, هي طابع المجودات كلها, ولا مانع من استثناء حالات نادرة لعوارض خارجية.

إن الذي ثبت من استعراض طبيعة الأشياء المادية, ومن التأمل في الخط التطوري الذي تسير فيه, نقيض ما تخيله أصحاب الفكر الجدلي تماماً, فهي تتطور, ولكن نحو الذبول والانمحاق, لا نحو الصعود والبقاء. فمن الثابت عند علماء الفلك والطبيعة أن مادة الكون الصلدة في مجموعها آخذة في الانحلال والاضمحلال في أثناء تحولها إلى شعاع.

ومن الثابت أن الطاقة إذ تتحول من شكل إلى آخر, إنما تتحول غالباً من الشكل الأعلى إلى الشكل الأدنى, أي من الأقوى إلى الأضعف, فطاقة النور مثلاً أغنى من طاقة الحرارة, ومن السهل أن تتحول ألف وحدة من طاقة النور إلى ألف وحدة حرارية, وذلك بتوجيه مقدار من النور إلى سطح بارد أسود مثلاً, ولكن إعادة تحويل هذه الوحدات إلى الحرارية إلى طاقة نور مستحيل؛ لأن تفكك الشيء واضمحلاله أيسر من إعادة تركيبه.

ويصدق هذا القانون على حياة الإنسان وجسمه, وعلى نسيج الخلايا في كل شيء, فهو لا يفتأ يقوم بوظيفته ضمن الشروط والظروف المعروفة, وتستمر عملية التجديد والتوراث فيه إلى مقيات محدود, فأجهزة الجسم كله لا تلبث أن تتقاصر عن أداء وظيفتها, فتتناقص الحرارة فيه, وتعجز الأجهزة عن استخراج الحرارة اللازمة للجسد والخلايا, وينتهي ذلك بوقوف كل شيء عن أداء وظيفته التي كان دائباً عليها, ثم يكون الموت الذي ما منه بد. وينطبق هذا على الإنسان والحيوان والنبات, فأين الواقع العلمي المشاهد من تخيل ما يسمى بسلطان الجدلية, أن الأشياء في صعود لولبي مستمر نحو الأعلى والفضل دائماً؟. لا شك أنه خيال حلو وطريف, ولكنه وببساطة يتنافى مع الواقع الكوني كل المنافاة.

فإذا كان هذا محض خيال, فكيف يصح أن يُشاد عليه بنيان عريض من الجدلية من دعوى الجدلية في حركة التاريخ والمجتمعات والاقتصاد ؟. وهل هذا إلا كمن يتوهم, ثم يبني على أوهامه قصوراً وأحلاماً.

وما إن فرغ هؤلاء من تخيُّل الجدلية في دنيا المادة, حت أخذوا يُفرِّعون عنها, ويبنون عليها دعوى الجدلية على أنها عامل محرك ومهيج لنشأة الدين وتطور المجتمعات ووسائل الإنتاج وعلاقاته.

ودعاهم خيال هذه الجدلية إلى القول بأن الإنسان كان في أول عهده بالحياة كسائر الحيوان والبهائم, لا يتمتع بوعي ولا لغة, ولا تشده إلى أخيه أي علاقة اجتماعية, حتى فار سلطان الجدلية فورته في كيانه, **اعتماداً على المحور الثابت في حياته**, ألا وهو البحث عن الطعام والشراب والمأوى... أو الشعور بالحاجة إليها, فزجه في مجمتع, ثم قدح المجمتع في رأسه **زناد العقل**, وفتق في لسانه **اللغة**, وأقامه على علاقات إنتاجية متطورة وسارية صعداً... ولا يزال يصعد بدافع من سياط الجدلية, التي انعكسس سلطانها المهيمن على المادة والطبيعة, إلى التاريخ والحضارة.

من ذا الذي يملك أن أن يُنِيم عقله في رأسه ليصغي في خدر واستسلام إلى هذه التخيلات التي لا يملكها ضابط منطق, ولا يؤيدها ميزان علم؟.

وهنا يرز سؤال مهم, ما الذي منع سلطان الجدلية أن يفور فورته هذه في حياة البهائم والوحوش, فيزجها هي الأخرى في مجتمع؟ لتكون لها بواسطته ما تكون لفنسان من لغة وعقل... مع أن محور وسائل الإنتاج والشعور إلى بالحاجة إلى الطعام والشراب كان موجوداً في حياتها بأقوى وأحلى ما هو موجود في حياته؟!. ما الذي جعل هذه الجدلية تتميز في قانونها لمصلحة الإنسان وحده, وتهمل في جنبه مصحلة زميله الحيوان ؟.!.

وعندما لا يقوى المنطق العلمي على النهوض للدفاع عن الجدليةوسلطانها, بالإجابة على هذه الأسئلة التي لا بد أن تفرض نفسها, يبرز أمامنا القانون الإلهي: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: 36].

وعندئذ يضطرنا المنهج العلمي المجرد إلى صرف النظر عن هذه الأخيلة التي لا يوجد أدنى عليها, بل تخالف أبسط الأدلة. وبالتالي لا مفر من اليقين أن الإنسان خُلق منذ نشأته الأولى مجهزاً بالفكر والوعي, متمتعاً باللغة, ونزَّاعاً إلى التآلف الاجتماعي, ومتميزاً عن سائر الحيوان.

أحقاً أنَّ الحرية جوهر الوجود الإنساني.

هذه إحدى مقولات الفكر الوجودي, ومن الخطأ تسميتها فلسلفة؛ لأنها لا تفرق بين بين الجوهر القائم بذاته, والعرض المتقوم بغيره, فتطلق على الثاني اسم الأول.

أصحيح أن الحرية تمثل جوهر الوجود الإنساني؛ بحيث إذا فُقدت, فُقد معها الإنسان, ضرورة أن الشيء لا يوجد بدون جوهرة, أم أنها تمثل حتى عرضاً من أعراضه التي لا تقبل الانفكاك عنه, كالطول والعرض والثقل؟...

وللإجابة على هذا السؤال, لا بد من التساؤل عن المعنى المقصود في >الحرية<. إن كلمة حرية تطلق ويراد بها أحد معنيين:

إما التخلص من القسر الخارجي, أو التخلص من القسر الخارجي والداخلي معاً. أو بعبارة أخرى, قد يراد بالحرية أن يملك الإنسان إصدار قرراته السلوكية في حق نفسه, بموجب إرادته الشخصية, دون أن يشوبها أي قسر خارجي, بقطع النظر عن وجود عوامل داخلية قد تجبره على تلك الإرادة وهو له كاره. وقد يراد بها أن يملك الإنسان التوفيق بين إرادته ومحبته, بحيث لا يضطره عامل ما إلى توجيه إرادته نحو ما لا ترضى عنه نفسه, إو إلى محبة ما لا قِبَل له بتحقيقه والوصول إليه.

فإن قُصد بها المعنى الأول, فهي أُمنية محققة عند أكثر الناس, ولدى معظم الأمم, على المستويين الفردي والاجتماعي, فالناس لا يتحركون ويتقلبون في مختلف شؤون حياتهم إلا بوحي من إرادتهم, مما يعني أنه لا حاجة إلى اصطناع كفاح وهمي للدفاع عن هذه الحرية التي لا أحد محروم منها.[5]

والحرية بهذا المعنى مصانة, فمنها تنبع قيمة العقيدة, وبِسِرها تتحق كرامة الإنسان, وعلى محورها تدور قيمة التصرفات والعقود صحة وبطلاناً. ومن أهم المصالح التي جاء بها الدين أن يتمتع الناس في ظله باختياراتهم وإرادتهم, فلا يضيِّق عليهم منها أحد بشيء من اسباب القهر والاستعباد.

أما إن قُصد بها المعنى الثاني, أي أن تكون إرادة الإنسان في حاله تعبيراً عمَّا تهفو إليه نفسه, ويشتيه هواه, ولا تكون الإرداة إلا واحداً من جنودها, فهي فيه طفولية, لا وجود لها إلا في الأخيلة والأحلام.

[5] ولا يدخل في هذا من أودع السجن لسبب يستدعي ذلك. وإنه لكفاح مقدس أن تتجه المساعي وبكل طاقة وجهد إلى من حرموا نعمة هذه الحرية, ممن أوقعتهم يد الظلم في مصيبة أسر, أو ظلام سجن, أو قبضة استعباد, فحرموا من نعمة التمتع بالإرادة والاختيار.

وتحديد حجم الحرية – بالمعنى الثاني– في واقعها الحتمي, يتم من خلال اتساق بين طرفيها, أما الأول فيبدأ برغبة الإنسان واختياره, وأما الثاني فيتعلق بواقع أو حقيقة كونية ما, اتجهت إليها الرغبة في ممارسة معينة.

فالطرف الأول يمثل منبع الرغبة والاتجاه الإنساني الذي لا يجب أن يُواجه بأي عقبة أو صد. غير أن الطرف الثاني لا يراعي هذا الاتجاه, بل يرصد الضرورات التي من شأنها أن تحجِّمَّ حدود الرغبة وتضبطها, ضمن حدود معينة. ومن اتساق ما بين هذين الطرفين وخضوع أضعفهما للأقوى, تكون حقيقة الحرية التي يمكن للإنسان أن يمارسها ويتمتع بها.

إن الرغبة التي يشعر بها المريض مثلاً, تلح عليه أن يتناول من الأطعمة كل مايروق له, غير أن الواقع الحتمي الذي يمثله الطرف الآخر, يصده عن تناول ألوان كثيرة منها, والنتيجة التي لا بد منها, أن تتحد الرغبة الإنسانية طبقاً للضرورة التي يمثلها الواقع الذي لا محيد عنه.

توجد رغبة أساسية يشعر بها كل واحد من الناس, بأن يملأ أوقاته بالمتعة التي تهفو إليها نفسه, دون أن يتحمل مسؤولية الانضباط بأي عمل. لكن الواقع الذي يتفاعل معه الإنسان يأبى إلا أن يُنغص عليه السبيل إلى تحقيق هذه الرغبة؛ لأن النظام الكوني قائم على ضرورات لا مردَّ لها, من شأنها أن تُحَّمِل الإنسان ضريبة الحياة ومسؤوليتها الاجتماعية. فإن لم يخضع لتلك الضرورات شقي من حيث تأمل السعادة, وأثقلته القيود, من حيث تأمل مزيداً من الحرية والاختيار. كما تطمح النفس الإنسانية إلى تلمس حياة لا انقضاء لها, وشاب لا هرم بعده, وقوة لا ينسخها ضعف, لكن متعلق هذه الرغبة يصطدم مع سنن راسخة ينضوي تحت سلطانها القهري الوجود افنساني طوعاً او كرهاً. تعني هذه الحقيقة أن الحرية ليست ممارسة ذاتية تتم في دائرة مقفلة داخلة الكينونة النفسية, وإنما هي تفاعل يتم بين الإنسان والأنظمة المحيطة به, فحريته ملجمة إذن بقيود تلك الأنظمة وأحكامها. وكل ما يملكه من تحرك في أبعادها فمنحة من تلك الأنطمة, كان من الممكن أن لا يعطاها الإنسان ولا يتمتع بها.

والنظر في القيود الكونية ومصدرها وفي مدى إمكان التغلب عليها, سيهدي الناظر فيها إلى الإقرار بوجود خالق لهذا الكون, ومبدع لقوانينه وأنظمته... ويدرك أن قصة الحرية المتوهمة, كقصة العنز التي أطال صاحبها زمامها, وأحد طرفيه في يده, والآخر عنقه, فحدود حريتها تنتهي مع نهاية العقال المربوطة فيه, ومهما طال العقال فلن يورثها أي حرية او انعتاق.

إن القرار الذي ينبغي على العقل أن يتخذه تجاه هذا الواقع الذي يفرض نفسه, هو اليقين بأن الحرية هي التي يجب أن تخضع للضرورة, وليست الضرورة هي التي يتوقع أو يطلب منها أن تخضع للحرية. وبالتالي لا محيد من جعل الحرية تابعة للضرورات القسرية التي لا قبل للإنسان بتغييرها أو مقاومتها. وسبيل أن يعود بالحرية إلى المعنى الأول, وهو أن يجعلها عنواناً على الإرادة التي يملكها في سائر تصرفاته وشؤونه الاختيارية, ثم يطوع إرادته لأحكام تلك الضرورات ومقتضاياتها, دون أن يبالي بموافقتها أو مخالفتها لأهواء نفسه ومتطلباتها, فأكثر إرادتنا التي نُخضع لها قراراتنا السلوكية لها, من هذا القبيل. فالمفلس يريد بيع داره ويتخذ قاراه الطوعي بذلك, دون أن تكونله رغبة نفسية في هذا البيع, والمريض يمتنع عن تناول كثيراً من الأطعمة الشهية بملء إرادته, دون أن يكون ذلك تعبيراً عما تتطلبه وتشتهيه نفسه...

كل ذلك يتم ضمن دائرة الحرية وتحت عنوانها؛ لأن القصد بالحرية في هذه الحال أن يكون كل من الإرادة والاختيار الإنساني هو القائد إلى السلوك والحامل عليه, دون أن يشوبه قسر خارجي. وإقد توافر عنصر الإرداة والاختيار, فقد تحققت الحرية, وانتفى القسر والإكراه.

ويرد سؤال لا بد منه, ترى ما الفرق بين ضرورات الطبيعة-كما في الأمثلة السابقة- وضروريات العبودية القسرية التي طبعت بها كينونة الإنسان لله ﷻ؟.

ما قيمة أن أدعي لنفسي الحرية, فأتمرد - انطلاقاً من هذه الدعوى- على التعاليم الإلهية, وأتجاوز حدود المنهج الديني, بعد أن تكامل لدي اليقين العقلي بأن الذي ألزمني بهذه التعاليم وحدد لي المنهج, هو الذي فطرني من العدم, فأنا مملوك له على كل حال, ناصيتي بيده, ومرجعي بعد الموت إليه, وسيحاسبني على كل ما جنيته من خير وشر؟.

غير أن عشاق الحرية يؤثرون مع ذلك تجاهل هذه الحقيقة والانقياد وراء عبث الحرية وجدِّها في كل ما تصبو إليه نفوسهم, حتى إذ اصطدموا بجدار هذه الحقيقة حلَّ بهم اليأس والقنوط, وأصابهم القلق.

إذن فلنروض حريتنا الإنسانية على أن تختار لنا سلوكاً ينسجم مع واقعنا وحدود ذاتنا, ألآ وهو: أن كون عبيداً لله بالسولك والاختيار, كما قد خلقنا عبيداً له بالقهر والاضطرار.

دور علم الكلام وأهميته.

ينبغي أن يدرك المسلمون أهمية علم الكلام في تاريخهم الغابر, ويومهم الحاضر, وعليهم أن

يجددوه ويطوروه بدلاً من أن ينتقصوه قدره, أو يظلموا أهله, فهو في حقيقته حوار ونقاش يعتمد أسلوب المنطق ومنهج البحث في تبدبد كل ما يثار جول أصول الإسلام من شبهات ومشكلات. وينبغي على علماء المسلمين أن يجعلوا له مهمتين:

الأولى: وضع التيارات والشبهات الفكرية الجديدة في ميزان هذا العلم, ثم نقضها على ضوئه, وبأسلوبه نقضاً موضوعياً وعلمياً هادئاً. وتعود فائدة ذلك على من يطوف بأفكارهم أو يهمن على عقولهم بعض هذه التيارات.

و**الثانية**: اسخلاص قانون يوضح للمسلمين اليوم الحدود الأخيرة التي يمكن أن تصل إليها نهضة العلوم الكونية في ميزان الإسلام وحكمه, بحيث يقف الفكر الإنساني بعدها أمام جدار صلب لا يمكن اجتيازه أو اختراقه. وتعود الفائدة منها على عامة الطبقة المثقفة من المسلمين.

مشكلات فهم القرآن وتفسيره.

يحلو لبعضهم تفسير القرآن وفقاً لهواهم, أو تحميل آياته ما لا تحتمله, ومن ذلك اللهاث خلف النظريات العلمية في تفسير الحياة والكون, أو المذاهب الفكرية... لكن لا بد اتباع ميزان فهم القرآن وتفسيره, وتتمثل أبرز قواعده وأركانه, في الآتي:

أولاً, خضوعه لدلالات اللغة العربية وقواعدها.

ثانياً, خضوعه لقواعد تفسير النصوص المتفق عليها, كأحكام العموم والخصوص, والإطلاق والتقييد, والمنطوق والمفهوم.

ثالثاً, ألا يتعارض مع دلالات قطعية لنصوص أخرى من قرآن أوسنة.

من تلك التفاسير, تفسير قوله الله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا} [نوح: 13، 14]. أن الآية تتحدث عن التطور بصريح العبارة, فالآية تسجل سبقاً علمياً على كل من (لامارك وداروِن)

إن الميزان المذكور لا يساعد هذا التفسير؛ لأن صرف كملة >أطواراً< إلى هذا المعنى يتناقض مع آيات صريحة من مثل قوله تعالى: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: 4], فالآية نص قاطع أن الله ﷻ أبدع الإنسان في أحس تقويم, وهو مناقض لتصور أنه تصاعد من فصائل وأشكال دنيا, إضافة إلى أن كلمة >أطواراً< فسرتها آية أخرى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [الزمر: 6], فضلاً عن بيان النشأة ل,لى للإنسان: { يَاأَيُّهَا

النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا } [الحج: 5], وهذا التفسير الآية بهذا المعنى يجر إلى مفاسد....

وحسبُ النظرية الداروينية, أن واضعها >داروين< استدرك عليها بانتقادات, مما حمله على القول: >إن ما نعلمه من تاريخ الإنسان لا يبلغ شيئاً, إذا ما قورن بمبلغ جهلنا بالتاريخ< . فهي مجرد فرضية. وليست حقيقة علمية, كما أنه قد نقضها القوم الذين نشأت بين ظهرانيهم. والشيء لا يصبح حقيقة علمية إلا بعد القيام بالاستقراء التام لمختلف الصور والحالات, وليس الاقتصار على بعض الظواهر.

مشكلات الاتباع والابتداع.

يتمزق التصور الإسلامي في أذهان كثير من المتطلعين إلى فهمه في ضرام الصراع القائم بين أولي الإفراط والتفريط في فهم الاتباع وحرب الابتداع.

ليس كل جديد بدعة.

البدعة بمعناها الاصطلاحي: ضلالة يجب الابتعاد عنها, ينبغي التحذير من الوقوع فيها., واصل ذلك قول رسول الله ‘: >من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ<, وقوله ‘:>إن خير الحديث كتاب الله, وخير الهدي هدي محمد, وشر الأمور محدثاتها, وكل بدعة ضلالة<.

أما المعنى المراد من >البدعة<:

فهل المراد بها المعنى اللغوي, فيكون المقصود كل شيء طارئ على حياة المسلم مما لم يفعله رسول الله ‘, ولا أحد من أصحابه؟. فإذا كان كذلك فالمسلمون يعانون من ضلالة لا مفر منها.

وكم من أشياء جديدة طرأت من لدن عصر الصحابة إلى اليوم, إلا أن العلماء استنبطوا قاعدة من روح الدين ومبادئه: أن الأصل في الأشياء الإباحة, واستنبط آخرون أن العرف بقيود معينة أحد مصادر التشريع.

مما يعني أنه لا يُعقل أن يكون المعنى اللغوي للبدعة هو المقصود, بل المقصود معنى اصطلاحي. ذكر الشاطبي تعريفين للبدعة,[6] الأول: أنها طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة, يقصد بالسلوك

[6] لأنه يعدُّ في مقدمة من تناول هذه المسالة بالبحث والدراسة المفصلة, من جهة, ولأنه من أكثر العلماء المتقدمين محاربة للبدعة.

عليها المبالغة في التعبد لله ﷻ. والثاني: أنها طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة, يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. وإنما ردها إلى هذين التعريفين نظراً لرأي من حصر البدعة في العبادات, ولرأي من عممها في سائر أنواع السلوك والتصرفات.[7]

والمهم في التعريف القول: >طريقة مخترعة... <, ولكي يأخذ السلوك معنى البدعة وحكمها, يجب أن يمارسه صاحبه على أنه داخل في بِنية الدين, وأنه جزء لا يتجزأ منه, مع في واقع الأمر خلاف ذلك, وتلك هي روح البدعة, وسر تحذير الشارع منها, والملاحظ في تسميتها بدعة.

يتضح من ذلك أن مناط إنكار البدعة وردها على صاحبها, أن المبتدع يقحم في بِنية الدين وجوهره ما ليس منه, فالله ﷻ لما كان هو المشرع فلم يبق اي مجال للتزُّيد عليه, كاختراع صلاة أو صيام, أو الالتزام بلون واحد من الطعام, أو الثياب...

أما سائر الأفعال الأخرى التي تصدر عن الإنسان, دون أن يتصور أنها جزء من جوهر الدين وأحكامه, إنما يندفع إليها ابتغاء تحقيق مصلحة دينية أو دنيوية, فيه أعبد ما تكون عن احتمال تسميتها بدعة, وإن كانت مستحدثة في حياة المسلمين بل مآلها أن تُصنف إما تحت ما سماه رسول الله ‘ سنة حسنة, أو سنة سيئة.

وملخص ذلك:

إن كانت الأفعال والتصرفات الصادرة عن الإنسان متعارضة مع أوامر أو نواه ثابتة, فهي مخالفات محرمة أو مكروهة, سواء أكانت مستحدثة او قديمة, كالنوادي والأمكنة التي تشاع فيها المنكرات.

وإن كانت مرسلة غير معارضة ولا موافقة لشيء من أحكام الشرع وآدابه, فهي تصطبغ بلون الآثار والنتائج التي تحققها. فما كان مؤدياً إلى تحقيق مصلحة من سلم المصالح الخمسة التي جاء الدين لرعايتها, فهو من قبيل السنة الحسنة, وهذا يتفاوت بين الندب والوجوب, فقد يكون من ضرورياتها الذاتية’ أو حاجاتها الأساسية, أو من تحسينياتها. وما كان متسبباً إلى عدم واحدة من تلك المصالح, او الإضرار بها, فهو من قبيل السنة السيئة. ثم تتفاوت درجة سوئه حسب مدى الضرر الذي يلحقه بتلك المصلحة, بين الكراهة والتحريم. أما ما كان بعيداً عن اي تاثير ضار أو مفيد سلم

[7] مال فيما بعد إلى أنها تختص بالعبادات, سواء القلبية, وهي العقائد, أو السلوكية, وهي أنواع العبادات الأخرى.

تلك المصالح, فهو من قبيل المباح, أو من قبيل العفو, من ذلك دراسة كل ماجد من معارف تحقق مصلحة من مصالح الدين أو الحياة, وإقامة المؤسسات والمجامع وأجهزة إعلام ووسائل نشر.. ومن ذلك التذكير بمناسبات دينية بارزة, كالهجرة وفتح مكة, ومولد النبي ‘, مما يتوخى منه تحقيق خير يعود لمصلحة المسلمين, بشرط ألا تلحق آثاراً ضارة تودي بجدوى ما لأجله أقيمت, أو بمصلحة مقدمة عليها.

التربية الوجدانية بين مشكلة الابتداع وفقد الاتباع.

مما هو معلوم أن إنسانية الإنسان إنما تتحقق بالعقل والوجدان, دون الجسد, وبسرهما نال تبوأ مكانة عالية بين خلق الله ﷻ.

أما عقله, فهو أداة الإدراك والوعي, وله جنود من حوله يعينونه في إنجاز عمله العظيم.

أما وجدانه, فهو ما يعبر عنه بالعاطفة, وهي تنقسم (من حيث تنوع الدوافع التي تتأثر به) إلى ثلاثة أقسام رئيسة: عواطف دافعة, وهي التي تتأثر بعامل الرغبة والحب. وعواطف رادعة, وهي تتأثر بالرهبة وأساب الخوف. وعواطف ممجدة, وهي التي تتأثر بصفات العظمة وموجبات الإعجاب.

ومن الثابت أن جميع ما يصدر عن الإنسان من سلوك وتصرفات, إنما هو بدفع وإيعاز من الملكتين أو الحقيقتين, على أن دور العقل لا يزيد على كونه إضاءة للطريق, وتبصيراً بالحق. أما الوجدان فمحرك ومهيِّج إلى السلوك, حسبما تمليه عوامل الرغبة والرهبة والتمجيد, مهما كان نوعها, وأيًّا كان مصدرها.

من أجل هذا قرر علماء التربية أن سبيل الوجدان كثيراً ما ينفصل عن العقل, فيندفع الإنسان إلى مسالك لا يقرها الفكر السليم, لا سيما عندما تستبدُّ الشهوات وتتحكم الأهواء بالوجدان, فإن سائر دوافعه وروادعه إنما تتكون عندئذٍ من تلك الشهوات والأهواء. ومن هنا فإن المشكلة الكبرى التي يواجها الإنسان في حياته تتمثل في أن الدوافع السلوكية في حياته, إنما يأتي معظمها من الوجدان, وأما نصيب العقل فيها فنزر يسير.

فما أكثر الذين يتمتعون بمدارك واعتقادات سليمة, ولكنهم لا يستطيعون أن يلزموا أنفسهم, على صعيد السلوك والتطبيق, إلا بجزء يسير مما تستوجبه قناعاتهم واعتقاداتهم العقلية. والمجتمع ذاخر بمظهر هذا الازدواج المتشاكس!.

ومن هنا ظهرت ما يسمونه >التربية< في سائر المجتمعات الإنسانية. وما هي – في

حقيقتها- مهما تنوعت وتطورت إلا ترويض للوجدان, ابتغاء تطويعه لمقتضيات العقل, وقصارى ما يهدف إليه المربون, أن تتلاقى كلا القوتين: العقلية والوجدانية في كيان الإنسان على طريق واحد, في تعاون وانسجام, دون أي تناقض أو تشاكس.

فإذا علمنا أن الكيان الإنساني مكون من هاتين الحقيقتين, وإذا علمنا أن إليهما مردُّ الحركة الإنسانية الدائبة فوق الأرض, فما لاشك فيه أن هذا الدين الذي أنزله الله ﷻ تبصيراً للإنسان بحقيقة الكون والحياة, وإلزاماً له بالتعامل معهما على أساس تلك التبصرة, يجب أن يكون مهيمناً على كل من العقل والوجدان معاً. إذ لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا خضع كيانه الإنساني – المؤلف من العقل والوجدان- كله لحقائق الإيمان ومبادئه. فإذا أيقن العقل ولم يُثر الوجدان, أو تأثر الوجدان ولم يتوافر اليقين العقلي, فإن هذا الكيان لا يسمى في الحقيقة مؤمناً.

وذلك لأن جُلَّ الدوافع السلوكية في حياة الإنسان, إنما تندفع من عواطفه ووجدانه, فماذا عسى أن يكون للإيمان أو الإسلام من سلطان على الإنسان إذا لم يزد على كونه مجموعة مسائل اعتقادية ركنت في زاية من العقل, دون أن يتأثر الوجدان منها بموجبات رغبة أو رهبة, أو تعظيم وتمجيد له, حتى انساحت العواطف من جراء ذلك, طليقة في ساحة الشهوات والأهواء والرغائب النفسية المتنوعة بمعزل عن مشورة العقل وحكمه.

لا ريب أن هذا الإنسان يوصف – بموجب موازين القضاء الدنيوي – بأنه مسلم, وتطبق عليه أحكام الإسلام, ولكن الحقيقة التي سيؤول إليه أمره أن إيمانه العقلاني الأعزل سيذبل, ثم إن ثورة الوجدان المعاكسة ستخنقه وتميته ! فما هو إلا أن تؤول معتقداته الذهنية إلى شكوك وأوهام...

إن الإيمان بالله ﷻ لا يستقر ويثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعامتي العقل والوجدان معاً. فلا بدَّ من أن يُغرس وجوده في ساحة العقل وبراهينه أولاً, ثم لا بدَّ أن تُغذى أصوله برعاية العواطف والوجدان ثانياً. كشأن الشجرة لا بدَّ أن تُغرس في تربة صالحة أولاً, ثم لا بدَّ أن تُتعهد بالرعاية والسقيا ثانياً. وكما أنها تذبل ثم تيبس إذا غرستها في أرض صالحة ثم أعرضت عن سقياها ورعايتها, فكذلك الإيمان المغروس قناعة ويقيناً, ثم لم تغمده وتنعشه بمشاعرك الوجدانية, وتركت هذه المشاعر تصبو إلى الرغائب والشهوات النفسية, فإنه لا جرم يذبل ثم يختنق في أوار تلك الرغائب والشهوات الجانحة.

من أجل هذا ترى البيان الإلهي لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة

الوجدانية في مقدمة هذه الصفات: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]. {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90].

إن وجل القلوب وخشوعها, والانسياق إلى الدعاء رغبة ورهبة, كل ذلك من مظاهر ارتباط مكمن الوجدان الإنساني بالحقائق الإيمانية الجاثمة في العقل.

ويتبين لدى التأمل أن الممارسات العملية لأركان الإسلام وتوابعها لا تفيد صاحبها شيئاً, إلا إذا سرى إليها شعاع من جذوة الإيمان الذي استقر قناعه ويقيناً في داخل العقل. فعندئذٍ تحيا الممارسات الفعلية بروح الإيمان, وتتحول من حركات آلية باردة إلى سلوك إيماني نابض بمشاعر الرقابة الإلهية, فلا شك أنه إذا أقبل إلى أيِّ عبادة من العبادات, أقبل إليها بمشاعر متيقظة تنبهه في كل لحظة إلى أن الله ﷻ يراه, وتلك رتبة الإحسان التي ندب إليها رسول الله ‘.

ولكن كيف السبيل لإيصال أشعة الجذوة الإيمانية في العقل, إلى ممارسات على الأعضاء؟ وعن طريق أي سلك يمكن تحقيق هذا الربط؟.

إنه سلك العاطفة والوجدان, فهو الذي يمكنه أن يمتصَّ القناعة الإيمانية في العقل, ثم يُحيلها في بوتقة العاطفة إلى شعلة متوهجة من الحب والخوف والإجلال, ثم يوجهها إلى تلك الأعمال والوظائف الإسلامية من صلاة وصيام وذكر... فإذا هي مشاعل سلوكية مضيئة, وإذا هي تنبض بيقظة الإجلال لله ﷻ. عندها يدرك معنى قوله ‘: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ», وقَوْلِهِ لِبِلَالٍ ~ فِي الصَّلَاةِ: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ».

أما السبيل إلى استخدام العاطفة في تحقيق الصلة بين مركز الإيمان في العقل, ومظهر الوظائف على الأعضاء, مع العلم أن هذه العاطفة من شأنها أن تكون أسيرة في يد النفس وشهواتها ورعوناتها, فهي تكوِّن بذلك أغلظ حجاب يحجز قناعة العقل والفكر عن مظاهر الأعمال والسلوك, حتى تغدو تلك الأعمال من جراء ذلك حركات تقليدية آلية ميتة لا حياة فيها ولا ضياء.

تلك هي العقبة الكؤود, وذلك هو الابتلاء الذي أقامه الله ﷻ في حياة الإنسان, ثم ألزمه بالجهاد, بمجاهدة النفس والهوى, في سبيل اجتياز العقبة, ثم السير لبلوغ مرتبة الإحسان. وتوعد على ذلك ووعد, فقال ﷻ: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}

[النازعات: 37 - 41].

والكلمة القرآنية الجامعة لهذه المجاهدة: التزكية, {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: 9 -10].

من أجل هذا اتجهت همة الصادقين في إسلامهم إلى تزكية النفس من أوضارها ورعوناتها, وربط العاطفة بحقائق الدين وأحكامه, من جوانبها الثلاثة: الرغبة والرهبة والإجلال.

كان أمر التزكية بالنسبة لعصر الصحابة والتابعين أسهل بالنسبة لمن بعدهم, لحداثة العهد بالإسلام والقرب من عصر النبوة, ثم ما لبثت أن فُتحت عليهم الدنيا, مما اقتضى مضاعفة الجهد لبلوغ تلك الغاية؛ حيث أصبحت القيود أثقل وأكثر.

فما كان إلا أن انصرف أُناس إلى استنباط أصول ومناهج تربوية, يأخذ بها الإنسان نفسه ليسمو بها, ويتحرر من رعوناتها وأمراضها الباطنة, ولم يكن فيما استنبطوه ما يتعارض مع كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ‘. وكانوا في صنيعهم لا يزيدون ولا ينقصون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة, فاستنبطوا قواعد النحو من لسان العرب, ولا عن الذين استنبطوا الأصول من اجتهادات الصحابة, أو استخرجوا قواعد البلاغة والبيان من القرآن الكريم.

وكان في مقدمة الركب, الحارث المحاسبي: (ت243هـ), وأحمد بن أبي الحواري (ت246هـ), والجُنيد البغدادي (ت298هـ). وهم بهذا لم يخرجوا عن منوال من سبقهم من كبار التابعين, كالحسن البصري, وعطاء بن أبي رباح...

غير أن هذا السلوك, أدركه ما أدرك غيره من أنواع العلوم والمعارف الإسلامية من أدواء البدع والزغل, والانحراف عن جادة القصد والاستقامة. فامتزج بالحق الذي ندب إليه الربانيون, كثير من الباطل الذي روج له الجاهلون آناً, والفسقة والزنادقة آناً آخر.

والدافع إلى هذا القول, وجوب التفريق بين التعليم والإرشاد, إن الإرشاد عملية تربوية تستهدف تقويم الوجدان الإنساني وتصعيده, ويتطلب قدرات فائقة من المرشد.

أما التعليم فليس أكثر من نقل المعارف إلى الأذهان, وإنما يكفي لذلك توفر المادة العلمية, والأداة التعبيرية السليمة, فالناس أحوج إلى المرشد الكامل منهم إلى المعلِّم العالم, وإن كانوا بحاجة إلى الاثنين معاً.

فالتربية الوجدانية تستهدف ربط المشاعر الوجدانية بالله ﷻ, حباً له, ومخافة منه, ورضا عنه,

واتكالاً عليه. وكي يتحقق ذلك لا بد من مداومة ذكر الله تعالى, وقراءة القرآن, والصلاة على النبي ‘, والأخذ عن عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

مشكلات في التاريخ والاجتماع.

هل يمكن إقامة المجتمع الإسلامي على منهج ثوري؟.

ملعوم أن الثورة في عرف السياسة الحديثة, تعني التغيير الجذري الشامل, في مختلف شؤون الحياة, قفزاً فوق سنة التطور والتدرج, سواء بطريقة سلمية , أو بالعنف.

إن إشاعة أحكام الإسلام وآدابه في المجتمع إنما تأتي ثمرة لرسوخ جذروه الاعتقادية في الأفئدة والعقول, وذلك مجمل الفارق الكبير بين النظم الإسلامية وسائر الأنظمة الاجتماعية أو السياسية الأخرى؛ وذلك لأن الأنظمة الأخرى لا تنو اعتقاداً عن طريق المناهج التربوية المجردة, وإنما تفرض نفسها بالوسائل المادية المختلفة, وربما كان العنف واحداً منها.

أما نظام الإسلام, فإنما ينهض على دعامة حفية تكمن في أغوار النفس, وهي استشعار عظمة الله ﷻ, واليقين بوجوده ورقابته للإنسان, وبأن مرده إليه, وأنه سيجوى الجزاء الأوفى...لذلك أي عمل لا يقوم على ميزان الإيمان لا قيمة له يوم القيامة: {قَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } [الفرقان: 23].

وما ريب في أن طريقاً يتجه سالكه إلى الأفئدة والعقول, لا يصلح إلا أن يكون طريق مرحمة وسلم, وحكمة وأناة, وما من شك في أن أخطر العقبات التي قد تبرز تتمثل في الضغينة والعنف. فالله ﷻ بأمر بقوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} النحل: 125

غير أنه قد تبرز مسألة الجهاد, وأنه من أقدس شرائع الإسلام, وأن القيام به من أعظم القربات...

والجواب أن الجهاد الذي شرعه الله ﷻ لا يعدو ما تشرعه أي دولة مسالمة؛ حماية لسلمها ورعاية لأمنها, وهو أمر أقرته كل الشرائع.

ومشروعية الجهاد ليست من قبيل شرعة المقاصد والغايات, وإنما هي وسيلة لا بد منها, في ظروف معينة تفرض نفسها, يقول العز بن السلام: >إن الجهاد لا يُتقرب به إلى الله ﷻ من جهة كونه إفساداً, وإنما يُتقرب به من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد وجلب المصالح<.

تاريخنا الإسلامي والافتراءات الملصقة به.

ليس حتماً أن كل تطور في مجالات الفكر والحياة صعوداً نحو الأفضل, ؛ لأن عملية التظور وسيلة إلى غاية, وليست غاية بحد ذاتها.

تحدث الناس عن التظور العلمي الذي حظيت به الدراسات التاريخية, وأن المؤرخ لم يعد مجرد راو يصف للناس الحادثة, ثم يتنصل بعيداً, ليروي خبراً آخر... بل غدا محللاً لبواعث الأحداث, مستنطقاً لنفوس أصحابها, شارحاً لألغازها...

وحسبَّ الكثير أن الدراسات التاريخية دخلت بفضل هذا التطور في وضع أكمل, وتهيأت لتقديم ثمار أفضل, وما عرفوا أن هذا كان بمثابة سكين تمكن من يشاء, من تمزيق كل ما يحتفظ به الماضي من وثائق الأحداث, ليعود فيحول التاريخ إلى مجرد مسرح, يملؤه من بشاء بما شاء الصور والفصول. حدث منذ أن جاء >فرويد< واشياعه بالمذهب الذاتي في كتابة التاريخ.

في ظل هذا المذهب أصبح المؤرخ في حل من التقيد بقواعد الرواية والسند, ليصبح متهيئاً لأن يدخل بخياله وأفكاره ووجدانه في معترك الأحداث الخالية التي انقطعت عنها معظم الدوافع والبواعث النفسية والبيئية التي جاءت على أعقابها.

فلو كان المؤرخ أو الكتاب ملكاً من الملائكة في صفاء قصده, لما استطاع إلا أن يصطبغ بلون البيئة التي هو فيها, وأن يخضع لمقتضيات الثقافة التي غُذِّي بها, وأن ينجرف في تيار التربية التي نُشِّيء بها, ثم لم يجد مناصاً من أن ينظر إلى تلك الحداث الغابرة بنمظار هذه الموازين الجديدة.

من أمثلة التفسيرات القائمة عى هذا المنهج, أن الفتح الإسلامي بقيادة رسول الله ‘, إنما هو ثمرة صراع بين يسار اقتصادي يمثل الطبقة الفقيرة, ويمين يمثل طبقة أثرياء مكة.

وتدل أحداث السيرة النبوية على خطأ هذا التفسير خطأً فاحشاً, فأهل مكة عرضوا على رسول الله ‘ المال والملك... على أن يتخلى عن الدعوة إلى الدين, فأرسلوا إليه شيخهم عتبة بن ربيعة, فما كان جوابه ‘ إلا أن قال له: ما جئت بما جئتكم به, أبغي مالكم, ولا الشرف فيكم, ولا الملك عليكم, ولكن الله بعثني إليكم رسولاً, وأنزل عليَّ كتاباً...

ومن ذلك تحليل بعض المسشرقين للعهد الأموي, أن الفتح الإسلامي تحول في عهدهم إلى تسسلط عربي ضد الشعوب الأعجمية, وأن المجتمع انقسم إلى طبقة السادة, وهم العرب, ومنه صاحب الرسالة, وأصحابه, والعائلة المالكة, والوقاد والأمراء... وطبق الموالي, وهي خليط من

الشعوب الأعجمية المغلوبة, فالعرب خلقوا ليسودوا, وأما غيرهم, فلكنس الطرق, وخرز الخفاف, وحياك الثياب...

وهذا التفسير مخالف لدلالة اللغة, فكلمة >مولى<, تطلق على السيد وعلى العبد, كما أن الواقائع تدحض هذا, من ذلك أن عمر ~ لقيَّ نافعاً, وقد كان قد استعمله على مكة, فقال له من استعملت على أهل الوادي؟ فقال عبد الرحمن بن أبزى, مولى من موالينا, فسأله عن حاله, فقال: إنه قارىء لكتاب الله, عالم بالفقه والفرائض. فسُرَّ عمر ~, وقال: أما إن نبيكم, قال: >إنه الله يرفع بهذا الكتاب ويضع به آخرين<.

وكان عطاء بن ابي رباح مولى لبني فهر, تولى افتاء مكة, وكان ينادي منادي الخليفة الأموي في موسم الحج: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح...

مشكلتنا أخلاقية وليست فكرية.

إن إمعان النظر في معرفة سبب ضعف الالتزام بلأحكام الشرعية, لا يعود إلى نقص العلم والدراية, بل نجده ينبع من داخل البنيان الفكري والعلمي, بل بحماية ورقابة منه, لتبرير الفعل. من ذلك تسويغ نسبة قليلة من الربا, يستند إلى حماية من العلم والفكر.

فتذويب كثير من الأحكام الشرعية تحت القاعدة المعروفة: >تتدبل الأحكام بتدبل الأزمان<, لا يتم إلا بإشراف من منهجية النظر والبحث الإسلامي.

وإن التشجيع الذي لا قته إباحية التعري والاختلاط بين الجنسين, لم ينهض إلا على ديباجة من التأويلات والفتاوى الشرعية.

إذن هي ليست مشكلة نقص في الدراية أو الفكر أو العلم, بل هي مشكلة أزمة في الأخلاق, ولا يقصد بها المعنى الفسلفي, بل المقصود بها استيقاظ معنى الرقابة الإلهية في القلب.

ولو كانت العلوم والأبحاث الفكرية وحدها حلاً لمشكلة الفضيلة والسلوك, لبطل أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء كما قد قضى الله ﷻ, إذ وسيجد الناس أنفسهم مسوقين إلى اتباع الصراط الإلهي الحق, بمجرد أن أن يعلموا بعقولهم دلائل هذا الصراط ومعالمه وحدوده, ولما اختلف الناس بعد علم, ولما بغوا بعد معرفة وفكر, قال تعالى في حق من لم يغنهم العلم بالحق أي غناء: {فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الجاثية: 17].

العلم في ذاته من أقدس الحقائق في الوجود, لكنه يفقد قداسته وينقلب وبالاً على صاحبه

والآخرين, عندما يحمل أثقالاً من شهوات النفس وأهوائها. ورب ناس رفعهم الله ﷻ بالعلم درجات, ولكنهم لما أخذوا به شهوات الأرض, واستخدموه لخدمة النفس والهوى, أنزلهم الله ﷻ إلى دركات الحطة والشقاء الإنساني المهين.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: 175- 176].

وليس من حل لهذه المشكلة إلا أن يوقظ المرء الشعور بالمراقبة, فإن الإنسان إذا آمن بالله ﷻ, وأيقن بأنه ﷻ رقيب عليه, يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور, وأن كل ذلك يُقيد في سجل, وأنه ينشر أمامه يوم القيامة مع صوت يناديه: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية: 29].